المحاضرة الخامسة المبحث الرابع

نماذج من الفكر السياسي قبل افلاطون

أولا :هيبودام ـ هيبودام كاتب سياسي حقيقي وأول مؤسس لمذهب سياسي بمعنى الكلمة .وصفه ارسطو بأنه أول شخص اقدم على اعطاء فكرة واضحة لأفضل اشكال الدساتير كان هيبودام مهندسا معمارياً بارعاً في تخطيط المدن ,ومع اهتمامه بالأمور العامة في اثينا إلا انه لم يساهم في حكومتها او يشارك في تسيير شؤونها لانه ليس من مواطنيها بل هو أجنبي قادم اليها من مدينة أخرى هي مدينة ميليتوس .وقد اعتبر ، هيبودام ، أول رجل غير سياسي حاول أن يصف لنا دولة مثالية ,في تقسيماته العامة يقدم لنا ، هيبودام ، تقسيماً فريداً من نوعه ، فهو يقسم كل شيء إلى ثلاثة أقسام : فالطبقات ثلاث والقوانين ثلاثة ، ونظم الملكية ، ايضأ ، ثلاثة وهكذا ,أما فلسفته العامة فتقوم على اساس نظري :يتخيل فيها مدينة مكونة من عشرة آلاف مواطن يقسمهم إلى ثلاث طبقات هي :

.طبقة الصفوة الممتازة التي تدير شؤون المدينة وسميها طبقة المثقفين او الطبقة الحاكمة

طبقة الرجال الأشداء الاقوياء التي تقع على عاتقها مهمة الدفاع عن المدينة ويسميها طبقة العسكريين .

. طبقة الرجال العاملين التي تقوم بانتاج المواد الضرورية وتسمى الطبقة العاملة

وتنقسم كل من هذه الطبقات ، بدورها ، إلى ثلاث وحدات :فالطبقة الحاكمة تتكون من لجنة تحضيرية ومجلس شيوخ وسلطة تنفيذية ، وطبقة العسكريين تتكون من القادة )أو الضباط والجيش المحارب ، وعامة الناس القادرين على حمل السلاح .والطبقة العاملة تضم بدورها الفلاحين والصناع والتجار (وفيما يتعلق الأمر بالزراعة فهناك تقسيم بالنسبة للأراضي :

فهناك اراضي مقدسة مخصصة للأغراض الدينية ، واخرى عامة مخصصة للمحاربين وثالثة خاصة تترك لطبقة الفلاحين .ولاشك أن جعل الأرض التي تفي بحاجات الجنود ملكا عاما سيذكرنا بمخطط افلاطون وان كان افلاطون قد اتبع خطة مختلفة ، وخصص الأرض كلها للطبقة المنتجة

ولكنه فرض عليها خراجة نوعية يستهلكه الجنود والحكام على الشيوع .واستنادا إلى اقتراح هيبودام من أن تكون هناك طبقة خاصة من المحاربين ، وأن تكون املاكها ملكا للدولة يمكن القول أنه كان يهدف الى اقامة حكومة "تناولتها يد الإصلاح ، ولا تشوبها شوائب العصر .حكومة تتحرر من العجز السياسي عن طريق التخصص وتتطهر من الفساد السياسي عن طريق الشيوعية .اما القوانين فقد قسمها ، ايضاً إلى ثلاثة أقسام :

قسم منها يتناول مايقترف ضد الشرف وقسم يتناول ما يمس الملكية ، اما ثالث هذه الأقسام فانه يتعلق بالجرائم التي ترتكب ضد الأرواح .كذلك قسم هيبودام الادارة إلى ثلاثة أقسام وفق المواضيع التي ندخل في نطاق عملها :فهناك ماتخص الشعب وهناك ما يتعلق بالغرباء المستوطنين ثم هناك ما يتناول شؤون الأجانب .وعلى الرغم من التقسيم الطبقي السابق فان هيبودام لم يمنح أي طبقة حق احتكار "السلطة السياسية بل جعل لكل مواطن حق المشاركة في الحكم متي ما انتخبه الشعب ومن هنا يلاحظ أن هيبودام يأخذ بنظام الانتخاب وسيلة لاختيار الحكام وهو مالم يكن يقره انصار . الديمقراطية من الاغريق القدماء ، ففي نظر هؤلاء أن الانتخاب وسيلة أرستقراطية لتعيين الحاكم ، وان الاختيار بالقرعة هو الذي يعد وسيلة ديمقراطية لانه وحده الذي يحقق المساواة (لكن ماهي افضل النظم السياسية التي يحبذها هيبودام ؟ هنا نجده يختار النظام المختلط الذي يجمع بين عناصر مختلفة مستمدة من الأنظمة الملكية والارستقراطية والديمقراطية ,فلكي لا يستبد الملك بسلطاته يرى هيبودام وجوب تقييد هذه السلطات وتحديدها بهدف معين هو المصلحة العامة وموازنتها بواسطة عناصر مستقاة من النظامين الأرستقراطي والديمقراطي ، أن هيبودام يدعو الى نظام شبيه بالنظام البريطاني الذي وصفه مونتسكيو في القرن السابع عشر (في كتابه روح القوانين ملكية مفيدة تعاونها طبقة ارستقراطية تتنافس فيما بينها ليظهر كل فرد مواهبه ، كل هذا تحت : رقابة المواطنين الذين يتمتعون بقسط من المشاركة في تسيير الشؤون العامة .ومن حيث النظام الاجتماعي نجد هيبودام يتخذ موقفا محددا .فهو من دعاة الاشتراكية ، المطلقة التي تضع كل شيء في يد الجماعة ، ويدعو ، ايضا ، إلى القضاء على الفوارق بين الثروات ، وان يكون التعليم من اختصاص الدولة التي تتولى ، فوق ذلك ، رعاية الأخلاق والمحافظة على حسن الآداب.

ثانيا :سقراط ـ سقراط موضوعه عسير جدا على المؤرخ ، فلئن كان هنالك من الناس من لا نشك في اننا نعلم عنهم الا القليل ، ومن الناس من لانشك في أننا نعلم عنهم الشيء الكثير ، فان الامر في سقراط هوا الاندري هل نعلم عنه القليل أو الكثير .فليس من سبيل إلى الشك في انه كان من ابناء أثينا ينفق أوقاته في مناقشات ويعلم الفلسفة للشباب ، لكنه لم يعلمهم لقاء أجر كالسفسطائيين ، وليس هناك من سبيل إلى الشك ايضا في انه حوكم وحكم عليه بالموت ، ثم نفذ فيه حكم الاعدام عام ٣٩٩ ق.م وهو في سن السبعين ,وكذلك ليس من سبيل إلى الشك في انه كان رجلا بارزا في أثينا .اما ما عدا ذلك فترانا ندخل في منطقة من المعلومات لايقين فيها ، فقد كتب عنه اثنان من تلامذته ها اكزينفون وافلاطون ,فأفاضا القول عنه ، لكنها اختلفا في رواياته اختلافا كبيرة وحتى حين يتفقان على رواية واحدة ، فإن اكزينفون ، عندئذ ، يكون ناقل عن افلاطون ، وأما حين يختلفان في الرواية ، فبعض الناس يؤمن بهذا وبعضهم بذالك ، وبعضهم لايؤمن لا بهذا ولا بذاك ,عاصر سقراط السفسطائيين وتبادل الاتهامات معهم )فرفض جوهر فلسفتهم القائم على أساس الايمان بحكم الأقوى وعدم الخضوع لأحكام القانون (واستطاع أن يحول الاتجاهات الفكرية المتناثرة في عصره الى فلسفة محددة المعالم بحيث نسب الفضل اليه في كل التطورات التي تمخضت عنها الفلسفة .

واذا كانت الوقائع تظهر ان سقراط لم يترك اي اثر فلسفي مدون او كتابات خاصة به ، ولم يكن صاحب مدرسة فلسفية متميزة وقائمة بذاتها فمن اين تستقي هذه الشخصية عظمتها وموقعها البارز في الفكر السياسي ؟ لاشك أن الإجابة على هذا التساؤل المنطقي تقتضي الإحاطة بأكثر من حقيقة تقتضي اولا التعرف على المنطق او المنهج السقراطي ، وتقتضي ثانية الألمام بالآراء المتولدة عن : هذا المنهج .

: فيما يخص منهج سقراط فإنه كان يقوم على دعامتين أساسيتين

التشكيك أو التهكم :فيطارد سقراط محدثه بفيض من الأسئلة معبرة بذلك عن جهل )متعمد ( ( بموضوع النقاش الى أن يتقلص حجم محدثه – الذي كان يظن بنفسه معرفة واسعة بذلك الموضوع تحت ضغط الاعتراضات المنطقية التي يبديها له .ومتى ماأقر )هذا المتحاور بجهله وعدم – قدرته على مواصلة الحوار ، وعن استعداده لتقبل الرأي الصائب ، يكون سقراط قد نقى تماما ،

مفاهيم محدثه من الافكار غير الصحيحة الملقنة له تلقينا .لقد ولد هذا الأسلوب اعداءة ألداء السقراط :فالذين كانوا يظنون انهم يعرفون ويرغمون على التحقق من جهلهم لم يعجبهم .هذا الامر اطلاقا ، لهذا كانوا يفدون على الذي اقتادهم الى وضع هزلي في النهاية .أما الدعامة الثانية ، فهي الاستنباط أو التوليد :فيبدأ )سقراط (بمساعدة محدثه على استجلاء الحقيقة بأسئلة واستيضاحات لاحقة حتى تتولد الفكرة الصحيحة عند )محاوره (قدر المستطاع .ان عليه أن يسأل بدون رحمة ، أن يجلو كل كامن من مخبئه ، وهو لا يطالب بأي ايمان في أي أمر من الأمور بل يطالب ، فقط ، بالفكر عن طريق التساؤل والفحص ، كان من البديهي أن يضمن سقراط محاوراته هذه مايعتقد بصحته من آراء أو منطلقات فكرية .وفي هذا المجال نستطيع أن نميز بين أكثر من فكرة :

١ – انتقد سقراط الديمقراطية في المدن اليونانية القديمة ، وبالاخص اثينا – والنظرية التي قامت عليها هذه الديمقراطية )المساواة بين المواطنين واختيار من يتولون الوظائف العامة (ونادى بوجوب أن نحكم الدولة من قبل الحكماء والعلماء ، ذلك لان الحكم الصحيح هو الحكم الذي يكون مصدره العلم والمعرفة وليس الاقتراع والتصويت فقط .لقد اعترض سقراط على فكرة الأقتراع لانها تتيح الفرصة للعجز كما تتيحها للهواية .واعترض على حكم جمعية وطنية ذات سيادة يستوي فيها الجهلة بفن السياسة ومن لهم علم بهذا الفن ولكل منهم صوت يساوي صوت غيره في الشؤون العامة

٢– إن الفضيلة تقوم على المعرفة العليا ملخصة في معاني وقيم أخلاقية ثابتة ومستقرة ، وطبيعة الانسان خيرة في أصلها لاتؤتي الشر أو الظلم او اي ضرب من ضروب الرذيلة الاخرى الا عن جهل وقصور ، ومن ثم كانت الحاجة للتعليم حتى تنبثق عنه الفضيلة وهي اساس صلاح المجتمع ونظام حكمه ,أن السياسي الصالح ليس الشخص الذي يفوز في الانتخابات أو الذي يسعده الحظ بكسب القرعة – على ما كان عليه الحال في اثينا وانما هو ذلك الحكيم العالم العاقل الذي يشع نور حكمته ومعرفته عدلا بين مواطنيه .من هنا يمكن القول أن الرأي الذي قدمه أفلاطون ، فيما بعد ، من أن الحكم هو فن خاص له رجاله المختصون ، وان هؤلاء يجب أن يكونوا من رجال العلم أو الفلاسفة انما هو مشتق من افكار استاذه سقراط ، والواقع أن المناداة بمبدأ سيادة المعرفة هذا من السهل أن يصبح ، في تطبيقه السياسي ، مبدأ للحكم المطلق المستنير ، ولهذا يمكن القول أن

فلسفات الملكية ، بل وفلسفات الحكم المطلق يمكن أن تستلهم وحيها من سقراط وبهذا المعنى كان سقراط عدوا للديمقراطية .

أن العدالة تلتزم بالتقليد الاغريقي الداعي إلى احترام القوانين ، سواء كانت هذه القوانين من صنع الحكماء أو قوانين إلهية ، والارتباط بالقانون تعبير عن مدى صلاحية المجتمع ومقياس لفضائله . لقد اعتبر احترام القوانين بمثابة تعبير عن خضوع المطالب الدنيا في داخل الانسان الى شيء أعلى وهو عقله .وقد دفع سقراط حياته ثمنا للتعبير عن الالتزام بحكم القانون حتى وان كان هذا القانون جائرا

ويتفرع عن الأخذ بمبدأ احترام المجتمع لقوانينه مبدأ آخر يتمثل في سيطرة أحكام القانون :اي خضوع افراد المجتمع )حكامة وحكومين (ومؤسساته جميعة لتلك القوانين العامة التي يحددها الدستور او القانون الاساسي لذلك المجتمع لا للأهواء أو الارادة المتغيرة للحكام هذا يدفعنا ، أخيراً ، إلى التعرض ، وبإيجاز ، إلى تلك المحنة التي تعرض لها هذا الفيلسوف في أواخر سني حياته : المحاكمة .فطبقا لرواية التي يقدمها لنا أفلاطون في محاورة الاعتذار كان مضمون الاتهام الذي وجهه كل من ميلتوس )شاعر مأساة مغمور (وانيتوس )سياسي ديمقراطي (إلى سقراط هي انه شرير غريب الأطوار يبحث في دخائل الأشياء مما يقع تحت الارضي وفوق السماء ، ويقلب الباطل حق في الظاهر ثم يعلن كل هذا للناس .أنه بعبارة أخرى ، أثم في عدم عبادته للآلهة التي تعبدها الدولة ، وفي احلاله آلهة جديدة محل هؤلاء ، وفي إفساده للشباب بتعليمهم وفق مبادئه وعلى هذا : فان الاتهامات التي وجهت إلى سقراط تتحدد في اتهامين

الأول :اتهام ديني يقوم على اساس الكفران بآلة الدولة .والثاني :اتهام خلقي في ظاهره يقوم على افساد الشعب فكيف رد سقراط على هذه التهم ؟ يبدأ سقراط في مناقشة ميلتوس ذلك الرجل الفاضل الذي يحب وطنه حبا صادقا كا يقول عن نفسه فيسأله :من هم الناس الذين يصلحون الشباب ؟ فيجيب ميلتوس مشيرة أولا إلى القضاة ...ثم يرغم على القول بأن كل الاثينيين ، عدا سقراط ، يصلحون الشبان .وهنا يهنيء سقراط المدينة على حسن حظها ، ثم يقول »إن الإنسان خير له أن يعيش بين أناس أفاضل من أن يعيش بين قوم أراذل .وعلى ذلك فيستحيل عليه ان يبلغ من الغفلة

حدا يجعله يفسد أبناء مدينته عمدة ، فإن كان قد أفسدهم عن غير عمد ,كان واجب ميلتوس أن يرشده لا أن يوجه له الاتهام .

ثم يتجه الى الاثينيين بالقول »يأمرني الله أن أؤدي رسالة الفيلسوف التي هي البحث في نفسي وفي سائر الناس ....ومادمت حياً قوياً لن اقلع عن ممارسة الفلسفة وتعليمها ، مستميلاً اليها من أصادفه .اعلموا أن ذلك أمر الله ، واني مؤمن ان الدولة لن تشهد خيراً أفضل من خدمتي .

ثم يهاجم الحكام فيقول :ولو قضيتم علي بالموت فسيصيبكم من الضرر اكثر مما يصيبني ...انكم لن تجدوا بيسر من يمثلني وان جاز ان اسوق لكم هذا التشبيه المضحك لقلت إني ضرب من ذباب البقر الخبيث ارسلتني الالهة إلى الأمة التقويم اعوجاجها ولكنكم أشبه بنائم أيقظه الذباب تغضبون وتضربوني لتعودوا ، بعد ذلك ، إلى النوم طيلة حياتكم ، وبعد ان ادانته المحكمة بأغلبية ٢٨١ صوتا مقابل ٢٢٠ صوتا ورفضت العقوبة التي اقترحها لنفسه ، وهي أن يدفع الفدية أو الغرامة البسيطة حكمت عليه المحكمة بالموت خاطب سقراط حكامه بالقول :إنني اعلن امامكم انتم الذين اجروا قضاءهم على أن العقاب سينقض عليكم سريعة بعد موتي ، وسيزداد عدد الذين سيهون في وجوهكم وسيكونون اشد قسوة عليكم واعظم خطراً ، .....فان حسبتم انكم بالاعدام تلجمون من ينغص عليكم حياتكم القذرة فأنتم مخطئون ، وهكذا تقدم لنا محاورة )الاعتذار (صورة واضحة لرجل من طراز خاص :رجل شديد الثقة بنفسه ، يسمو بتفكيره عن السفاسف ولا يأبه بالنجاح في الدنيا ويعتقد أنه مهتد بصوت مقدس ومؤمن بأن التفكير الواضح أهم ما تتطلبه الحياة الصحيحة .

لقد كانت محاكمة سقراط ، في واقعها ، محاكمة سياسية ، ومن ثم فان كل التهم التي وجهت اليه هي ، في حقيقتها ، تهم سياسية ، وسواء وصف سقراط بانه كان رجلا مفكراً او لم يوصف بذلك فالمقطوع بصحته انه مات شهيدا لفكرته الذهنية عن السياسة .لقد وجه النقد الى خصائص الديمقراطية الاثينية – من لجوء إلى الاقتراع ، ومن تشكيل للجمعية العامة ، ومن جهل اتصف به ساسة أثينا – ويبدو أنه نادى بأن معالجة السياسة تتطلب حذقة فلسفية للمعرفة .ولاشك أن تعليما كهذا في دولة ديمقراطية يعتبر ، على احسن الفروض ، عدم ولاء للدولة ، ويعتبر في أسوأها خيانة عظمى لقد لقي سقراط حتفه لانه اعتبر خطراً على نظام الدولة السياسي ، بمعنى أن التهمة الدينية

له كانت أشبه شيء بفكرة لاحقة او نتيجة للتهمة السياسية .ولهذا تخلد اسمه كأول شهيد للصراع بين الفكر والسياسة ، بين الحرية والاستبداد .بين الرأي والجبروت ، بين العقل ومنطقه ، والسلطة وفسادها ، واصبح اسطورة نضال للانسان الذي يحمل عقلا وفكراً وخلقاً ومبدأ وفضيلة .اي للانسان كما يجب أن تكون الانسانية ,لكن هل أن موت سقراط انهي التأثير الواضح الذي كان يفرضه بأسلوب مناقشاته على مجتمع اثينا ، وعلى غيره من المجتمعات الأخرى اللاحقة ؟ آن موت سقراط احدث هزة بالمجتمع الاثيني فاضطلعت حلقة أصدقائه بالتحدث عنه والشهادة له ، بحيث ولد الأدب السقراطي الذي يمثل )افلاطون (وجهه الأعظم .ان اصدقاء سقراط لم يقفوا مكتوفي الأيدي ، فعلى الرغم من أنه لم يترك أي أثر ولا أي مذهب ....فان أقوى حركة في الفلسفة اليونانية قد بدأت أن سقراط لم ينعكس على نحو واحد لدى مختلف تلاميذه ، فهو لم يخلف مدرسة واحدة ، بل ، مجموعة مدارس الميغاريون وسعوا المنطق والحذلقة ، ونهضت مدرسة أليس – فيدون بالبحوث الجدلية ، وسلكت مدرسة الكلبيين بزعامة انتسينيث درب الطمأنينة السلبية وانكار تأثير التربية والثقافة – أما المدرسة القورينائية فقد فصلت أخلاق الطبيعة وشروط اللذة ، ووقف افلاطون موقف واضحاً بين هذه المدارس من حيث السعة والعمل والقدرة على البسط والتفصيل ووجه نحو المستقبل تبار الفكر السقراطي .كما ترك سقراط تأثيره على العصور اللاحقة عليه .فمعظم فلاسفة العصر القديم رأوا في سقراط الفيلسوف الحق ، واحتلت شخصيته في العصور التي تلت مكانة مرموقة أيضا فآباء الكنيسة عدوه رائد الشهداء المسيحيين ، فهو مثلهم قد قضى نحبه في سبيل عقيدته ، وهو ، مثلهم قد أنهم بخيانة الايمان الموروث ، وفوق ذلك يذكرونه إلى جانب السيد ان اسمه قد خفت في العصور الوسطى ، الا ان عصر النور شهد انبعاثه مجددا مواكبة بروز الفكر السياسي المستقل بحيث اعتبر نموذجا لهذا الفكر ان واقع سقراط سواء حين عرف او حين أنكر تماما ، قد غدا بنوع . ما الحل الذي أضفت عليه العصور وكذلك البشر مشاغلهم الخاصة

ثالثا :أكزينفون اذا ما حددنا العقائد السياسية لأولئك الاتباع الذين خلفوا سقراط فسيبرز امامنا اسم اكزينفون كشخصية فلسفية إحتذت باستاذها وتوصلت إلى نتائج تختلف تماما عن تلك التي توصل إليها افلاطون فيما بعد لقد إنحاز اكزيفون ، كأفلاطون ، ضد ديمقراطية أثينا وأسلوب حياتها الاقتصادية ، كا وانتقد جوانب النقص التي تعتري البيئة السياسية لهذه المدينة .وهو حين يبحث عن

العلاج فلا يجده ، كافلاطون في حكومة بديلة مثالية وإنما من خلال جعل الحكم في أثينا يشكل نموذجاً قائماً بذاته فارسياً بالمظهر واسبرطياً من حيث الواقع .ولعل موقف اكزينفون هذا نابع من أكثر من عامل منها :انتماؤه الأسري وتأثير استاذه )سقراط (عليه ، وكذلك تأثير النظام السائد في اسبرطة ، فهو من أسرة ارستقراطية غنية غرست فيه التطلع إلى تبوء مركز متميز ورفيع في المجتمع ، وهو في آرائه كسقراط يهاجم الديمقراطية باعتبارها نظام جاهلا لايستند على المعرفة ويفضل عليها النظام الأرستقراطي ، وهو معجب بنظام اسبرطة السياسي إلى درجة دفعت به للالتحاق بجيشها ومحاربة أعدائها .ولقد تناولت كتابات اكزينفون الحكم باعتباره أكثر الأعمال الإنسانية اهمية :فالدولة يجب ان تكون كالجيش – إذا ماتطلعت إلى نفس القدر من الكفاءة – فتؤسس على نظام خاص مقبول وملائم سواء فيما يتعلق بدرجات الأفراد أو فيما يتصل بتنظيم العمل وتقسيمه .والحكم يجب أن يكون للرجل الحكيم العاقل الذي يؤدي تحت قيادته كل فرد ما يعرفه وما يحسن تأديته والقيام به ويقسم اكزينفون نظم الحكومات الى خمسة أنواع هي :النظام الملكي الدستوري والنظام الاستبدادي ويجمعهما أن السلطة فيها تتركز بيد فرد واحد .والنظام الأرستقراطي والنظام البلوتوقراطي )حكم الاغنياء (ويجمعهما أن السلطة في يد عدد محدود ، ثم ، أخيرة النظام الديمقراطي حيث تكون السلطة في يد الاغلبية وحين يحدد موقفا من هذه التظم يهاجم اكزينفون ، نظم الحكم الديمقراطية والاستبدادية والبلوتوقراطية ، ويدعو الى ادماج النظامين الملكي ، والأرستقراطي في نظام واحد .ويردد اكزينفون في كتابه الذكريات بعض الأفكار التي وردت في كتابه الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو .كما ويردد ، بصورة خاصة بعض افكار افلاطون الخاصة بالتعليم :فالقوانين يجب ألا تهدف إلى منع الجريمة فقط وانما تتعدى ذلك إلى تحديد السلوك الإنساني في الجماعة وتحقيق فكرة العدالة ، والتعليم يجب الا يترك للمؤسسات الخاصة وانما يجب أن تنهض به الدولة كي تستطيع أن تحقق بعض اهدافها من خلاله .ويلاحظ أن اكزينفون قد أهتم بالتعليم العسكري وكان معجبا بأساليب هذا النظام المتبعة في بلاد فارس ومدينة اسبرطة .وفي ضوء هذه المنطلقات تبنى اكزينفون فكرة الإغريق حول الدولة وكونها مؤسسة اخلاقية تعليمية مما يترتب على ذلك ضرورة إهتمام هذه المؤسسة بالاخلاق وبالتعليم ، وبالتالي ، تكريس جهد الحاكم لغرس الخلق القويم والحكمة عند الأفراد .